حديث الذكريات:

كان لاظ يتحمل سلوكيات الباشا وغضبه، ويرفق به ويحاول أن يخفف عنه في مرضه الأخير، ووجد أن أفضل حديث يمكن أن يتناوله مع الباشا هو أن يُذكِّره بإنجازاته العظيمة التي كثيرًا ما احتفلا معًا بنجاحها. وكان بالفعل هذا الحديث يرفع من روح الباشا المعنوية، ويخفف من غضبه ويعدل من مزاجه، وكان لاظ يتحدث دون أن ينتظر ردًا من الباشا، وكأنه يحكي له قصصا ممتعة، تُشعره بالارتياح، وهي قصص في مجموعها تروي تأسيس مصر الحديثة على يديه. فمما قاله له:

"أما ما كان من نقلكم مصر يا أفندينا العزيز إلى بيئة غير البيئة التي وجدتها فيها، وذلك بأن أقلعت عن طريقة الحكم التي سبقت عهدكم، فاحتط بديوان مؤلف من نخبة الرجال المحنكين، دعوته الديوان الخديوي،

وأنشأت من أبناء البلد جيشًا زاهرًا مدربًا على الطريقة الغربية، وعلى الرغم من الصعاب، كانت الواحدة منها كافية لتفل الحديد وتدك الجبال، وأنشأت بجانب هذا الجيش عمارة بحرية فخمة، جولت الراية المصرية مهابة معظمة في مياه البحر المتوسط ومياه البحر الأحمر، وأنشأتها من العدم، وعلى الرغم من عدم وجود مادة واحدة لديكم من المواد اللازمة لبنائها، كما جددتم بجدة المعارف بتغييركم برامج التعليم وطرقه، ففتحتم المدارس

تترى، ابتدائية وثانوية وعالية، فالمدارس الابتدائية كانت سبعًا وأربعين، والمدارس الثانوية والعالية والخصوصية كانت أربعًا وعشرين، منها مدرسة القصر العيني، ومدرسة اللغات، ومدرسة المعادن، ومدرسة الطب البيطري، ومدرسة الطب والتوليد، ومدرسة الموسيقي وغيرها. ولم تكتفوا بذلك، بل أرسلتم البعثات تلو البعثات إلى المعاهد الأوروبية، وإضافة إلى المدارس، إقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها، لتتمكن البلاد من الاستغناء جل الاستطاعة عن الواردات الأجنبية.

وغطيتم وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة، فمن سد أبي قير، إلى سد الترعة الفرعونية، إلى سد فتحة بحيرة المنزلة، إلى تقوية جسر قشيش، وهو الذي كان يصون مديرية الجيزة من الغرق، إلى بناء جسر لسد قطع في البحر اليوسفي، إلى تعزيز قنطرة اللاهون، إلى حفر الترع العديدة، وأهمها المحمودية والخطاطبة ومسد الخضراء، والنعناعية والسرساوية والباجورية والبوهية والمنصورية والشرقاوية، إلى إقامة قناطر حاجزة عليها ومسهلة للري، إلى بناء الترسانة وحوض تصليح السفن، وتشييد قناطر بحر شبين، والقناطر الخيرية الكبرى، وهي معجزة أعمالكم، إلى ابتناء الحصون والقلاع على السواحل المصرية، وبناء السرايات العديدة، وأهمها سراي رأس التين، وسراي شبرا، وسراي قصر النيل، إلى تحويل الأزبكية إلى منتزه عمومي، إلى غير ذلك من الأعمال العظيمة التي غيرت وجه القطر تغييرًا محسوسًا، وقد قمتم بهدم الحواجز التي كانت العصور السالفة قد أقامتها بين تعامل

الغرب والشرق، ومكن العالَمين من الاختلاط معًا، لا بالإتجار الواسع فحسب، بل بالاحتكاك اليومي، فحببتم إلى الغربيين المجيء إلى القطر، واستغلال رءوس أموالهم في أرضه، وإنشاء مدارس لأولاهم على سطحه، وفتحتم أمام الناس أبواب السفر إلى الغرب، والتعرف إلى حاله والاقتباس منه. وظل محمد بك لاظ على عهده مع الباشا إلى أن توفي الباشا في ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ هـ الموافق ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ بسراي رأس التين، ونُقِلت جثته إلى القاهرة، ودُفِن بمسجده بالقلعة.

تمت